

المرأة من خلال "اعترافات" القديس أوغسطينوس
the woman through Saint Augustine's
"Confessions"

كاسم ولقب المؤلف المرسل: بنت النبي مقدم- Mokadem bent nebi صص31- 45

الدرجة: أستاذة محاضرة أ في التاريخ القديم

العنوان المهني: جامعة الجزائر2- أبو القاسم سعد الله/البريد الإلكتروني: bentnebi@yahoo.fr

كاسم ولقب المؤلف الثاني: عائشة سعدان- Saadane Aicha

الدرجة: طالبة دكتوراه سنة ثالثة في التاريخ القديم

العنوان المهني: جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

البريد الإلكتروني: ss.aicha83@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2019/11/01 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/02/19

الملخص: يعتبر تاريخ المرأة في الجزائر الرومانية إشكالية جدلية تثير العديد من التساؤلات، وغالباً ما يركز الباحثون في دراستها على طبيعتها وعلاقتها بالرجل، ويتم تناسي كونها جزءاً من المجتمع لا يمكن من دونها بأي حال من الأحوال استمرار الجنس البشري، ناهيك عن أهميتها في الحفاظ على خدمة الأسرة والمجتمع على حد سواء، وأنها هي الأم والأخت والزوجة والبنت التي تزيد الحياة لذة وجمالاً؛ ويعد أوغسطينوس واحداً من الذين كتبوا عن المرأة قديماً في العديد من مؤلفاته، غير أننا نريد التعرف عليها من خلال "اعترافاته"، التي عرّى فيها نفسه، وأراد أن يصدّق مع الله والبشر، حتى يروا ما أصبح عليه بعد ما اقترفه من ذنوب وخطايا قبل معرفة الله، وقد تمكن من تقديم ما يفكر فيه وما يختلج بين ضلوعه من دون أي تجميل، وهو ما يدفعنا لتصديق آرائه في المرأة النابعة من شخص عاصر نهاية القرن الرابع وبداية الخامس الميلادي، ويمكن اعتباره شاهد عيان على تلك الفترة التاريخية، فكيف وردت صورة المرأة لديه؟ وهل كانت مهمة بالنسبة إليه؟

الكلمات المفتاحية: المرأة؛ الجزائر؛ أوغسطينوس؛ الاعترافات؛ العهد الروماني؛ القرن الرابع؛ الأم؛ مونیکا؛ باتريكيوس؛ المجتمع.

ABSTRACT: *The history of women in Roman Algeria is a controversial issue that raises many questions. In their studies, researchers often focus on her nature and relationship with man, forgotten as a component of society, without whom the human race cannot be preserved, not to mention her importance in caring for the family, and her special responsibility to love, and to raise children, and that she is the mother, sister, wife and daughter, it is she who makes life beautiful and makes her worthy to be lived; Augustine is one of those who wrote about women, in his many books during the antiquity, but we want to know the woman through his "confessions", where he tells the truth about all his sins and his life before knowing God, that's what makes us believe his testimony drives about women in the fourth and fifth century BC.J.-C.; so, what image did Augustine give to the woman? Were women important to him?*

Keywords: Woman; Algeria; Augustine; Confessions; Roman period; 4th century; Mother; Monica; Patricius; Society.

المقدمة: يصف تارتوليانوس* المرأة بكونها "بوابة الشيطان"⁽¹⁾، بسبب الحرية المطلقة التي وصلت إليها النساء، لدرجة أنه لولا اللباس لما كان بالإمكان التفريق بين السيدة "Matrona" والعاهرة، لأن السيدة أصبحت تتبرج مثلها مثل الساقطة، ناهيك عن الطيش والتبذير والوقاحة والإنفاق والمجون والفسق، وحتى الكسل والثروة والإدمان على الخمر⁽²⁾؛ ويبدو أن حرية المرأة، وتعاضل نفوذها وقوتها، ورغبتها في التمتع بحياتها قد أثارت حفيظة وسخط رجال الكنيسة، وحتى بعض المفكرين الأخلاقيين بدءاً من القرن الثاني، وبدأوا بعرض عيوب النساء ومحاولة إصلاح اعوجاجهن ووعظهن، ومع أن تغير حالها من الضعف للقوة، وحجها للترف كان قد بدأ يظهر عليها انطلاقاً من نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية الأول الميلادي، ولعل هذا الأمر كان مصاحباً لانتشار ظاهرة التمدن ليس في بلاد المغرب القديم فحسب بل وفي كل مدن وأرياف الإمبراطورية الرومانية، وبالرغم من أن النمط المعيشي للمجتمع لا يختلف بين منطقة وأخرى مجاورة، بقدر ما يتشابه وأحياناً يتطابق كلياً، ولكن ذلك لا يمنع من محاولتنا تسليط الضوء على المرأة ببعض مدن الجزائر القديمة من خلال شهادة أوغسطينوس في اعترافاته عن تلك النماذج التي أوردها لنا كالأم والزوجة والخليلة والخطيبة والحماة والخادمة ونماذج نسوية أخرى، أو ممن عرفهن هو وممن كن

يضمن حوله في شبابه وقبل مرحلة اعتناقه المسيحية، أو في محيطه الاجتماعي العام؛ غير أنه قبل البدء في الحديث عن نماذج المرأة لديه، لابد من التعرف عليه وعلى أعماله، ولو بنبذة مختصرة.

1- التعريف بأغسطينوس وأعماله:

1-1. حياته: أوغسطينوس أوريلوس "Aurelius Augustinus"، من مواليد 13 نوفمبر 354م، بمدينة سوق أهراس (Thagaste) **، اشتهرت بين المعاصرين الغربيين كونها موطن ولادته⁽³⁾، يعتبر نوميدي المولد والنشأة، من عائلة ميسورة الحال ليست بالثرية ولا بالفقيرة، حيث كان والده باتريكيوس "Patricius"⁽⁴⁾، قد امتن وظيفة موثق مهمته تنفيذ الأحكام والقوانين بمدينة، كان شديد الحرص على تعليم ابنه، وعمل جاهداً على الارتقاء به، كما عرف عنه حدة الطبع وسرعة الغضب؛ أمه مونیکا "Monica" مسيحية متدينة من أصول نوميديّة، اشتهرت بصبرها وقوة تحملها، وهو ما مكّنها من تحمل المزاج السيئ لزوجها⁽⁵⁾، وكانت تقاوم غضبه وتقلب مزاجه بالسكوت عنه وعدم الرد عليه.

زاول تعليمه الأولي في مسقط رأسه بمدينة سوق أهراس (Thagaste)، حيث تلقى المباديء الأولى للقراءة والكتابة⁽⁶⁾، ثم انتقل إلى مداورش (Madauros) *** المجاورة لمدينته، والمعروفة بمدارسها الشهيرة، ولتميزها بالعلوم الأدبية المتطورة، ليكمل تعليمه الثانوي وينهل من علومها، سرعان ما أنهى تعليمه بها وعاد إلى موطنه، وقد بلغ من العمر السادسة عشر.

تنقّل إلى قرطاج عاصمة العلم والمعرفة ليحصل على تعليم عال بجامعة، التي ذاع صيتها آنذاك وتهافتت عليها الوفود من كل حذب وصوب، فهي أحد أبرز أقطاب العلم⁽⁷⁾، وبعد وفاة والده حصل على منحة تبرّع له بها رجل من بلده ذي شهرة⁽⁸⁾ يدعى رومانيانوس "Romanianus" سنة 370م؛ فتصدر متعلّمي الريطوريقا (البلاغة) والخطابة والفلسفة هناك.

كما اعتنق الديانة المانوية سنة 375م، وسار في طريق البحث عن الحكمة متأثراً بكتب شيشيرون⁽⁹⁾ ليمتحن التدريس بقرطاج قبل أن ينتقل إلى روما مدفوعاً

بلموحيه عام 383م⁽¹⁰⁾، ثم توجه إلى ميلانو سنة 386م، وحصل على شهادة معلم الريطوريقا وتحصل على منصب بها، شغله لمدة أربع سنوات، وأثناء هذه الفترة رافق القديس أمبروزيوس "Aurelius Ambrosius" ****، وقد تأثر به كثيراً، ونتيجة لملازمته له وتأثراً بوصايا والدته المتدينة، ورغم دخوله غمار البحث في الأفلاطونية واقتناعه بها⁽¹¹⁾، إلا أنه اعتنق المسيحية، وتم تعميده هو وابنه في 24 أبريل 387م.

رجع إلى مدينته بسوق أهراس التي مكث فيها معتزلاً الناس لمدة ثلاث سنوات، وفي عام 391م أصبح مستشاراً لأوريليوس أسقف قرطاج ليعين في سنة 396م أسقفاً لمدينة عنابة (Hippone)، مرض بالحمى في الشهر الثالث من حصار الوندال لمدينة عنابة، وحينها أدرك أن حياته أوشكت على النهاية، ولذا قرر البقاء بغرفته والتضرع لله في الدير حسب صديقه وتلميذه بوسيديوس "Possidius" ****⁽¹²⁾، توفي يوم 28 أوت 430م وعمره ستة وسبعين سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً.

2.1 مؤلفاته:

1.2.1- الاعترافات "Confessiones": أورد فيه أخبار حياته وأدق تفاصيلها، ويعد نوعاً جديداً من الآداب يلعب بالسير الذاتية مع التحليل العميق لشخصية الكاتب وحياته الخاصة معترفاً بأخطائه عندما كان في طريق البحث عن الوجهة المؤدية إلى الله وهدايته للدين الصحيح⁽¹³⁾، يتكون هذا المؤلف من ثلاثة عشر كتاباً، شرع في كتابته باللاتينية حوالي 397م، وأنهاه في 401م، سرد فيه سيرته الذاتية بأدق تفاصيلها من الطفولة إلى الهداية ماراً بسرد شهواته ونزواته، وكيف كان بارعاً في التعليم وطالبا متفوقاً في جامعة قرطاج⁽¹⁴⁾، اهتدى إلى طريق المسيحية من خلال بحثه عن الحكمة ماراً بعدة مذاهب ومعتقدات، وكان قد فهم أن الشهوة لوحدها لا يمكن أن تؤدي إلى حياة سعيدة: تحدث في الكتب التسعة الأولى عن حياته حتى بلوغه سن الثالثة والثلاثين، وفي العاشر وصف شعوره الروحي أثناء تحريره لهذا المؤلف⁽¹⁵⁾، وأما ما تبقى من كتب فكان شرحاً لبداية كتاب سفر التكوين.

2.2.1 التثليث "De trinitate": يتألف من 15 فصلاً تتناول جميعها علم اللاهوت⁽¹⁶⁾ حيث بدأه متحدثاً عن عقيدة التثليث في إطار جدلي مع أصحاب الهرطقات المسيحية

التي ظهرت إلى الوجود من أمثال الأريوسيين لينهيه متباحثا عن آثار وصفات الله في خلقه ويوصف أوغسطين في هذا المؤلف بالناضج، حيث بدأ كتابته في 399 وأنهاه في 419م.

3.2.1 مدينة الله "De Civitate Dei": يعتبر هذا الكتاب من أهم مؤلفات أوغسطينوس، كتبه بطلب من صديقه فلافيوس ماركيلينوس⁽¹⁷⁾ ويتكون من 22 بابا، كتبه باللغة اللاتينية وهو من أبرز ركائز الفكر الغربي المسيحي، يعالج الكتاب عدة قضايا، من أبرزها مقارنة بين مدينة الله الخالدة ومدن الأرض الزائلة، وللمؤلف طابعين فلسفي وتاريخي وديني حيث يرد فيه أقوال متهمي المسيحية أنها سبب تدهور الإمبراطورية الرومانية كما يعالج فيه علم اللاهوت.

بدأ في كتابته سنة 413 وأنهاه في 427م، وتعمق في الأجزاء الخمسة الأولى في تاريخ الإمبراطورية الرومانية مفصلا الأزمت التي عصفت بها تكرارا ومرارا بالمقارنة مع أزمت المسيحية⁽¹⁸⁾، وبين للمتنصرين طريقة التعامل مع الوقائع الدنيوية مهما علا شأنها، مثل سقوط الإمبراطورية الرومانية⁽¹⁹⁾، ثم قارن فيما سواها بين المدن الدنيوية الزائلة ومدينة الله الخالدة، والتي عليهم التمسك بها فعلا لأنها لن تزول.

4.2.1 كتاب المعلم "Paedagogus": يتكون من مجموعة من المناقشات مع ابنه أديودات "Adéodat"⁽²⁰⁾، لمسائل هامة وحوارات تتعلق بالمعارف وكيفية إيصالها وتعليمها، جمعها في كتاب أسماه المعلم.

5.2.1 الرد على الأكاديميين "Contra Academicos": يتكون من ثلاثة كتب، بها حوارات يرد فيها على أصحاب هذه النظرية، متباحثا بذلك في مسألة اليقين مع الذين كانوا يشكون في كل شيء، وهو رفض الأخذ بكلية مجزئة ورجح الإحتمالية في ذلك⁽²¹⁾؛ وبالإضافة إلى ما سبق، له العديد من الرسائل التي تفوق 200 رسالة وحوالي 500 موعظة، والكثير من الخطب التي تفوق الألف مخطوط⁽²²⁾، كلها مؤلفة باللاتينية، تعددت مجالاتها وتبلورت من خلالها النظريات المختلفة، وغيرها كثير من الكتب والمخلفات الفكرية والدينية، التي لا يمكن ذكرها كلها في هذا المقال، غير المخصص لدراسة انجازات أوغسطينوس ومخلفاته.

2. نماذج نسوية في اعترافات أوغسطينوس:

2- 1. الأم: يعطينا أوغسطينوس أربعة نماذج للأم، نموذج والدته مونیکا، ووالدة والده، ووالدة ابنه أديودات "Adéodat"، ووالدة مونیکا، ويلاحظ أن الأربعة يمثلن الأم التي تهتم بأبنائها، وتفضل راحتهم على راحتها، ولكل طريقتها في التعبير عن ذلك، ولنبداً بنموذج مونیکا التي لم تكن سيدة البيت فحسب، والتي تعمل على القيام بما في وسعها لأجل أبنائها، وتنظيم البيت وإبقائه قدر الامكان هادئاً، بالتزام الصمت والطاعة لزوجها، بل يبدو أنها كانت قلقة أيضاً على إيمانهم وإعتناقهم التعاليم الصحيحة للدين، رغم أن العيش في بيت سيده وثني ليس بالأمر السهل⁽²³⁾، ولكن مهما كان ما تعاني منه لم تترك يوماً أولادها، وتتخلى عنهم أو تشتكي من زوجها، وهي بذلك النموذج الحقيقي للأم، الذي يعمل على راحة أبنائه مهما عانى أو واجه من صعابٍ مع الطرف الآخر، وكانت ممن يعبر عن حبه لأبنائه، فهو يشهد أنها كانت تناديه "بابنها الحبيب"⁽²⁴⁾، والعاطفة غالباً ما تكون أكثر تأثيراً في الابن حتى وإن كان قاسياً أو لا يهتم بوالديه، وكل ما يتعلق بها من ذكريات يبقى خالداً في الذاكرة مهما كبر الإنسان.

ويشهد أوغسطينوس على أمه بقوله: وأي أم حين بكت رحيله عن قرطاج، وسافرت إلى روما، وحين كذب عليها وأوهمها أنه لن يسافر، وسافر رغم محاولاتها الفاشلة لاقناعه بالعدول عن ذلك⁽²⁵⁾، في حين مكثت هي ليلة سفره في كنيسة كبريانوس تصلي وتبكي وتتضرع لله؛ وهو نفسه يذكر أن أمه مثلها مثل جميع الأمهات تحب بقاء ابنها بقربها، وأنها تطلب بالبكاء ما أنجبته بالبكاء والنحيب (وصف أوغسطينوس)، وأنها رغم إحساسها بمكره وقسوته إلا أنها لا تكف عن الدعاء له؛ تذهب للكنيسة مرتين، صباحاً ومساءً لتدعو لابنها ولنجاة روحه⁽²⁶⁾، أمه كانت كثيرة الدعاء، ولم تنهأ إلا بعد أن لحقت به إلى روما⁽²⁷⁾، ولعل الميزة السيئة التي اتصفت بها رغم ورعها وتقواها وعفتها هي إدمانها للخمر⁽²⁸⁾، لكن بإصرارها تمكنت من التخلي عنه.

مونيكاً كانت فخراً لابنها الذي كان يهنئه أمبروزيوس لكونها أمه، وحتى بقية أصدقائه كانوا يحبون فيها الحكمة والفضيلة، ولقد أحس بألم فراقها وبعدها عنه رغم أنه كان قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره، وشعر بحزن كبير لموتها بعد مرضها مدة تسعة أيام⁽²⁹⁾، وتوفيت وهي في سن السادسة والخمسين.

النموذج الثاني للأم، أم الأب أو جدته لأبيه؛ فهي كانت أيضاً تحاول الحفاظ على بيت ابنها، وتتصرف بحكمة حين ترى أن هناك من يتآمر على أمن وسلامة زوجة ابنها، ويهدد استقرار أمن المنزل؛ الأمر الذي يحسب لها ويعرفنا بخصالها من خلال تصرفها اتجاه كبتها وردة فعلها على الخادومات، حيث يصورها بصورة السيدة الحكيمة، النزينة التي لم تتوار عن تكفيرها عن ذنبها وحكمها الخاطئ على كبتها، وإخبار ابنها عما فعلته الخادومات لمعاقبتهم ورد هيبة الكتّة، حتى يلتزم حدودهن ويحترمها كسيدة ثانية للبيت.

النموذج الثالث وهو والدته ابنه أديودات "Adéodat"، هذه الأم التي أنجبت من علاقة غير شرعية، ورغم رفضها لحملها إلا أنها أحبتة حين ولادته، ويبدو أن هذا الطفل الناتج عن الخطيئة، والذي لم يرغب به والداه حين علم بحملها، ولكنهما أحباها بعد ولادته، بل أكثر من ذلك فقد أصبح فخراً واعتزازاً لوالده، وقد برز ذكاؤه وقدرته على المحاوراة في سن الخامسة عشر، وأصبحت عبقريته ظاهرة للعيان⁽³⁰⁾، ولمع نجمه قبل أن يختطفه الموت حسب اعتراف والده.

لكننا نعلم أن والدته أديودات اضطرت لفراقه والعودة لإفريقيا، ولكن أي دافع قهري يدفع أمّاً للتخلي عن ابنها؟ هل هو بسبب عدم زواجها من والده؟ أم أنها رجعت لأهلها ولا تريد إخبارهم بأن لها ابناً من دون زواج؟ أم أنها غير قادرة على إعالته؟ أم أن والده هو من أصرّ على إبقائه معه؟ أم أن الإبن هو من فضل البقاء مع والده؟ كل هذه الأسئلة وغيرها قد تتبادر لذهن الباحث في الحياة الاجتماعية آنذاك، حين يتطرق لمثل هذا النموذج من الأمهات، لكن يؤسفنا أنه لن نستطيع الإجابة مكان الشخص المعني بالأمر، الذي وحده يعرف الحقيقة، ومهما حاولنا التكهن بها، فلن نصل إلا لمجموعة فرضيات لا يمكن تأكيدها ما لم نجد نصاً أو نقيشة؛ وعموماً

ففي مثل حالة والدته أديودا لا يمكن اتهامها باللامبالاة أو عدم حبها له لأنها على العكس، ومن الواضح أنها اختارت الأفضل له بتركه مع والده، الذي كان سيؤمن له حياة أفضل، رغم أنها ستعاني من ابتعادها عنه، وهي تمثل نوعاً آخر للمرأة التي تخسر كل شيء لأجل الآخر، ولأجل من يعز عليها، وتضحي بكل ما تملك في سبيل من تحب، وتضحيتها كبيرة ولا يمكن لأن يشعر بها، إلا الأم التي جربت الأمومة.

النموذج الرابع، والدته مونيكاً⁽³¹⁾ التي لم تكن عليها ابنتها في تربيتها، والتي يبدو أنها تركت تربية بناتها للخادم، وهي ذاتها من ربّت والد مونيكاً، ويبدو أن أمها كانت ممن يترك العبء للخادم دون الاكتراث بتتبع خطوات بناتها، ولو كانت كذلك لما تعلمت ابنتها مونيكاً شرب الخمر، وتعودت الشرب بشراهة القدرح تلوى الآخر حين اغتراف الخمر من البرميل، كلما أمرها والدها بصبه لأنه يعتبرها الأكثر رصانة بين أخواتها، ولو كانت والدتها تراقبها لما وقعت في هذا، بخاصة وأن المربية كانت عجوزاً قد يعزى غيابها وعدم تتبعها في كل صغيرة وكبيرة لشيخوختها.

2.2 الزوجة: حين أصبحت مونيكاً في سنّ البلوغ تزوجت من شخص أصبح سيدها، وكانت محبوبة لديه، ورغم أنه كان يقدرها إلا أنه كان يخونها، ولكنها لم تتذمر يوماً أو تدخل معه في شجار، وكانت تحاول دوماً استدراجه لاعتناق المسيحية بإخباره عن الله وفضائله، وظلت تأمل أن يتطهر من آثامه ويرجع لطريق الاستقامة⁽³²⁾، ولم يخب أملها بما أنها لم تكل أو تمل من محاولة دفعه لاعتناق المسيحية⁽³³⁾، حيث أصبح كذلك في نهاية حياته.

ورغم كونه طيب القلب إلا أنه كان غضوباً، لكنها كانت تتجنب الثورة والهيجان، بتجنبه وعدم المواجهة أو التصدي له، وتحديه فعلاً وقولاً، ولا تبرر له ما فعلته وأغضبه منها إلا بعد هدوئه، وهذه فعلاً هي الوصفة السحرية لدوام العشرة الزوجية، والتصدي للتقلبات المزاجية وعواصف المشاكل بين الطرفين، وبالنسبة لمونيكاً حسب ما يذكره لنا أوغسطينوس فقد كان مبدؤها في الحياة والذي تراه أساس الهدوء والاستقرار، وواجباً اتجاه زوجها عليها التحلي به، لأنها كانت تنصح الأخريات باتباع طريقتهما والتحلي بالسكوت، والإذعان لأزواجهن وطاعتهم، طاعة

الخادم للسيد بحكم عقد القران الذي جمعهم بأزواجهن، والذي يشكل ميثاقاً بحكمه تصبحن خادمتان لأزواجهن، وكانت النسوة اللواتي يعرفن باتريكيوس يستغربين كيف أنها لم تغضب منه يوماً، أو حتى أنه لم يضربها⁽³⁴⁾، ولم ترين أبداً علامات الضرب عليها.

لقد كانت "زوجة لرجل واحد، وسددت لوالدها دين الجميل الذي عليها، وسيّرت شؤون منزلها بتقى، وقامت بما قامت به من أعمال الخير التي تشهد لها بذلك"⁽³⁵⁾، ويعتبرها ابنها أحسن من والده بسبب إيمانها وتقواها، ولا يستبعد أن التربية الجيدة والتحلي بالأخلاق الحسنة دوماً يكون عوناً للبنات بعد زواجهن، ويكون بمثابة السلاح والقوة التي تمكنها من قهر الصعاب والخروج من المحن بثبات.

بعد نموذج مونيكّا الذي يمثل النموذج العاقل، الذي يتصف بالرصانة ويحسن التصرف، الحنون العطوف، ومن يضحي ويدعو للزوج والأولاد، ويخاف على دنياهم ويريد لهم رضا ربهم عنهم، يأتي النموذج الثاني من الزوجات المهانات، اللواتي كن يتعرضن للضرب، ويتعذبن رغم لطف أزواجهن معهن، لكن ضربهن كان بسبب ألسنتهن حسب حكم مونيكّا على الأمر، ولأنهن كن ينسبن أنهن خادمتان لأزواجهن⁽³⁶⁾ وعلين طاعتهم وخدمتهم من دون تكبرٍ أو تحدٍ.

النموذج الثالث زوجة صديقه ويريكندوس "Verecundus" التي كانت مسيحية⁽³⁷⁾، لم يتحدث عنها الكثير سوى أنها كانت حاجزاً أمام اهتداء زوجها، ولم يفسر أكثر كيف كانت حجر عثرة أمام اعتناقه للمسيحية، والذي لم يتم إلا بعد مرضه مرضاً خطيراً وتوفي وهو مسيحي، لكن يبدو أنه كان يعاني معها مشاكل لم يتعرض لها أوغسطينوس، مادام ذكر أنه كان هو وأليبيوس "Alypius" يطلبان منه القيام بواجبه الزوجي بإخلاص⁽³⁸⁾، غير أنه يمكن أن يكون السبب لكونها مسؤولة منه وعليه توفير مستلزمات الحياة، ولا يستطيع ذلك والإفصاح عنه، وهو يعمل في القصر خاصة وأنه صرح أنه لا يستطيع أن يكون مسيحياً بالشكل الذي كان ممنوعاً عليه.

3.2. الخلية: تحدث أوغسطينوس عن خليلتين، الأولى هي التي عرفها سنة 371م- 372م بقرطاج، وهي التي أصبحت والدّة عطية الله "أديودا"، وعن رغبته بها يقول: "حضرت لقرطاج... وأحببت أن أحب... وأحببت أن أحب، وكان لطيفاً لي إذا استطعت اللعب بجسم المحبوب... انجذبت إلى الحب الذي أردته... وولجت بسرور لأعشاش المآسي"⁽³⁹⁾.

ويشير أوغسطينوس إلى أن والديه تركا له الجبل على الغارب بعدم تزويجه، وتقبيده بزوجة قد تعيق مسار حياته التعليمية وأحلامهما له بارتقائه اجتماعياً، بما سيحققه بعد إكمال دراسته⁽⁴⁰⁾، ونستغرب عدم تغير ذهنية المجتمع منذ القرن الرابع الميلادي لأنه حتى يومنا هذا نجد الكثير من الأولياء يفكرون بنفس الطريقة، وينسون أن الزواج يعصم الشباب من الوقوع في الخطأ والمحرم.

بدأ التلميذ حسب سارج لانصل⁽⁴¹⁾ بعينيه اللطيفتين يبحث بين الشابات عمن يوقعها في حباله، عاش معها ما يقارب الخمسة عشر سنة، وقد علمته تلك العلاقة الناتجة عن التهور اللامحدود واللاحذر الوفاء في السرير⁽⁴²⁾ بالرغم من أن العلاقة غير شرعية، ويستغرب قارئ الاعترافات كيف لأوغسطينوس الذي عاش معها كل هذه المدة ولم يفارقها إلا سنة 385م، والتي يبدو أنه عانى كثيراً من مفارقتها لها وبعده عنها، لم يذكر اسمها، لماذا أشار إليها ولم يذكر اسمها؟ هل عدم ذكر اسمها من باب الجحود ونكران العشرة أم من باب التقدير والاحترام؟ أم رغبة في حمايتها؟ ولماذا لم تتوج هذه العلاقة بزواج شرعي رغم ولادة ابنه منها؟

لعل عدم ذكره اسمها للجمهور راجع لاحترامه لها، ورغبة منه في عدم التشهير بها، وحتى لا تكتشف هويتها حيث ذهبت لتعيش، كما أنه لا يمكن إبعاد رأي لانصل في الموضوع⁽⁴³⁾، الذي أرجع الأمر إلى رغبته في نسيان الأمر وعدم تجديد الوجد والام الفراق من جديد، وذكر اسمها وكتابته سيذكره بها وبكل ما يتعلق بها، وسيفتح جروح الماضي بفرحها وشجونها، لذلك لجأ إلى النسيان الإجباري للاسم، ويضيف أن مجرد ذكر اسمها سيعيد الذكريات من جديد، ويجعلها تطفو وتؤثر على حياته.

ويعترف أوغسطينوس قائلاً: "حينما انتزعت من جانبي لكونها تمثل حاجزاً للزواج، رفيقتي في السرير، قلبي حيث تسكن، جرح وتمزق، وترك أثراً دائماً... رحلت لإفريقيا وتعمدت بعدم تعرفها لرجل آخر، وترك لي الابن غير الشرعي الذي أنجبته لي، ابني... أما أنا الفقير، والذي لم أقدر على تقليدها فيما فعلت، غير قادر على تحمل سنتين للزواج ممن خطبت، ولم أكن بمريد للزواج بقدر ما كنت عبداً للذة، واتخذت خليله أخرى، لم تكن زوجة... ولم يشف جرح انتزاع رفيقتي الأولى..."⁽⁴⁴⁾، ويتضح لنا من خلال هذا النص حبه للأولى وعدم قدرته على نسيانها، رغم أن أخرى حلت محلها كخليفة إضافة للخطيبة التي يفترض أنها ستصبح زوجة بعد سنتين، فهو هنا يعترف بألم الفراق، وجرح وقسوة الابتعاد الذي كان بموافقة ورغبته، على عكسها هي التي يمكننا القول إنه فرض عليها، وتوجب عليها القبول به والرضوخ لطلبات أوغسطينوس ليس بهجرانها فقط، بل وحتى بالتخلي عن فلذة كبدها، ومن الواضح أنها كانت هي الأخرى تحبه، وإلا لما وعدت بعدم التعرف على آخر، وفضلت الابتعاد إلى بلد غير البلد، في حين هو مقبل على الزواج من غيرها.

4.2. الخطيبة: نعرف من خلال اعترافات أوغسطينوس أن خطيبته الميلانية وريثة عائلة غنية⁽⁴⁵⁾، وحين خطبها لم تصل بعد السن القانوني للزواج، حيث توجب عليه انتظار سنتين للزواج منها، ويظهر أن والدته هي من رتبت للأمر والفتاة من اختيارها، لتحسين مستواه الاجتماعي، وعن هذا يقول: "الزواج لا يبرم إلا للإنجاب"⁽⁴⁶⁾ و"كنت أصبو إلى شارات الشرف والمكاسب والزواج..."⁽⁴⁷⁾؛ وقد بذلت الأم جهدها ليمنح الوعد بالموافقة⁽⁴⁸⁾، رغم أنها لازالت صغيرة، وقد أعجبته وراقت له مما دفعه للانتظار.

كان الزواج من الصغيرات في السن مفضلاً لدى الأغلبية، وهو ما يبدو من خلال زواج مونيك في اعترافات ابنها، وحتى هي بدورها حين اختارت خطيبة ابنها، اختارت واحدة لا يتعدى عمرها الاثني عشرة سنة، رغم أن ابنها كان في الثانية والثلاثين⁽⁴⁹⁾، ويلاحظ أن دافعه من الزواج يختلف عن دوافع أمه، ولعل ذلك ما دفعه للاعتراف بأن الزواج يعصم الشاب من الخطايا المتعلقة بالرغبة والجري وراء الرذيلة، خاصة

إذا كان مثله قابلاً للغواية والتأثر بغيره وبما يفعله الشباب من أفعال مشينة يتباهون بها⁽⁵⁰⁾.

5.2. الحَمَاة: كانت والددة باتركيوس حازمة، حاسمة وصارمة مع كنها، لكنها لا تحيد عن الحق، لأن هدفها كان حماية بيت ابنها، والتأكد من أن زوجته تحسن التصرف، ولهذا رغم سماعها لوشاية الخادومات عنها ومحاولتهن تعكير صفو العيش في منزل ابنها، إلا أنها حين عرفت زوجة ابنها جيداً، والتي استطاعت كسب حمايتها وجعلها في صفها بالحسن وعدم الرد عليها، أو التهور في التصدي لها وتحديها، أوقفت ما تفعله الخادومات، وأعلمت ابنها مباشرة بالأمر لمعاقبتهن؛ وفعلاً فغالباً ما يثير الحَمَاة على كنها هو تحديها لها وعدم سماعها الكلام، وحتى وشاية الآخرين، أو تدخل طرف ثالث بينهما، ولن تستطيع كسبها إلا بالمعاملة الحسنة، واحترامها والتأدب معها في الحديث. استطاعت بحكمتها وفطنتها تحقيق التفاهم والتلاحم بينها وبين كنها، والعيش معاً في سلام ووثام بمجرد عقاب سيد البيت للخادومات النمائم⁽⁵¹⁾، اللواتي عملن على تعكير صفو العلاقة بين الاثنين، وكسب الحَمَاة لصالحهن، ويبدو أن ذلك ما كان ليتم لولا أن مونيكا كانت صبورة، وتحترم الكبير وتقدره، ومعروفة بدمائة الخلق بشهادة ابنها.

6.2. الخادومة: يحدثنا أغسطينوس عن نوعين من الخدم، الخادمة المربية العجوز التي ربّت والدته، وأثنت عليها مونيكا، كيف لا وهي التي خدمت ببيت والد مونيكا لأنه تربى على يديها، وكثيراً ما حملته على ظهرها حين كانت شابة يافعة، ولذلك كلفها في بيته بتربية بناته⁽⁵²⁾ بسبب عفتها وكبر سنّها، واحترامها وخوفها عليهن، وهي من كانت تعلمهن آداب التعامل والتربية حتى يكن جاهزات لبيت الزوجية، ويحسن التصرف، وتميزت بالصرامة والعقلانية.

أما النوع الثاني، فهو تلك الخادمة التي تغار من سيدتها الصغيرة مونيكا، وتهدها بالإبلاغ عنها، وتُعيرها بالسكيرة في بيت والدها، والتي لا يستبعد أنها خافت أن يكتشف أمر سيدتها، وتعاقب هي لأنها لم تخبرهم عنها؛ ومثلها أيضاً الخادومات الموجودات ببيت باتركيوس، واللواتي حاولن الإيقاع بزوجه، وإثارة الفتن بينها وبين

حماتها، غير أن الأمر توقف بعد تطفن الحماة وإبلاغ ابنها عنهن لإيقافهن عن محاولة ايذاءها.

3. نماذج أخرى مختلفة من المجتمع: تحدث أوغسطينوس عن المتخصصات النمامات في أثناء إشارته لعادة النميمة التي تزيد في الضغينة وفي الخصومة بين اثنتين، وفي مثل هذه الحالة كانت مونيكا تلجأ لنقل أخبار طيبة للواحدة عن الأخرى لتصلح بينهما، على عكس ما تفعله النسوة الأخريات، اللواتي غالباً ما تنقل الواحدة لصديقتها كل ما من شأنه أن يبعدها أكثر فأكثر، ويرى أوغسطينوس أن هذا من توافه الأمور⁽⁵³⁾، وأن العداوة لا تتداوى إلا بالكلام الطيب.

تحدث أيضاً عن صديقاته القديمات اللواتي كن يجذبهن من ثيابه الداخلية⁽⁵⁴⁾، وعن الصبايا الطاهرات، والأرامل والعوانس العفيفات اللواتي كن يعرفن طهارة النفس، ومن بين الأرامل والدته التي ظلت عفيفة زاهدة بعد ترملها، تؤدي الصدقات وتقدم القرابين، وتخدم القديسين وتواظب على الذهاب للكنيسة⁽⁵⁵⁾، ولعل ذلك بسبب إحساسها بدنو أجلها؛ وأشار للمرضعات⁽⁵⁶⁾ اللواتي أرضعنه، ولا ندري إن كن من الخدم أم مريبات يشتغلن مرضعات ويساعدن ربات البيوت على إرضاع أبنائهن، وهل هن مريبات أم فقط يتكفلن بالإرضاع، لأنه لا يبدو من خلال سيرة مونيكا أنها ممن تهمل أبنائها للخادومات، وهو يصف المرضعات بالحنونات اللواتي يعطين حليبهن بحنان، ويغذين الأطفال حتى يتأكدن من أنهم شبعوا؛ كما أشار للخطيبين اللتين نذرنا عذريتهما لله⁽⁵⁷⁾، بعد أن علمتا أن خطيبهما وهما صديقا بونتيكيانوس "Ponticianus" الإفريقي، وقررتا التخلي عن مظاهر الدنيا والبقاء في كوخ خشبي كراهبتين.

الخاتمة: يتضح من خلال ما قدمه لنا أوغسطينوس عن الأم أن دور المرأة وأهميتها تكمن بالدرجة الأولى في كونها زوجة مطيعة، عليها الإنجاب وتربية أطفالها، والخضوع لزوجها خضوعاً تاماً مهما كانت عيوبه ونقائصه، وتلك هي المهمة المقدسة التي إذا تمكنت من تأديتها على أكمل وجه، أصبحت سيدة محترمة، وتستحق أن تصبح قديسة مثلما فعلت مونيكا مع زوجها؛ وليس أوغسطينوس وحده من تحدث عن

هذا، بل كلامه ينطبق على ما ورد إلينا من خلال النقوش الجنائزية لما بين القرنين الأول والثالث الميلادي، التي صورت لنا مثيلات مونيكا من اللواتي يمكن إدراجهن في نموذج المرأة الزوجة الوفية والتقية.

كما يستطيع القارئ للاعترافات إدراك قيمة وأهمية الدعاء والصدقات في قضاء الحوائج، حيث يتحدث عن مونيكا التي كانت تكثر من الدعاء لزوجها مثله مثل أبنائها، والتضرع لله لأجلهم، كما أنه لا بد من المعاملة الحسنة، والتحلي بمكارم الأخلاق التي تبني المجتمع، وتعزز روابط الصلة بين أطرافه، والتخلي عن الصفات التافهة والسيئة كالنميمة والوشاية بالغير التي تفرق الناس عن بعضهم البعض، وتهدم أسس الوحدة والتآلف.

الهوامش:

*تارتوليانوس "Quintus Septimius Florens Tertullianus" هو قرطاجي من عائلة مترومنة ولد سنة 150 م وتوفي سنة 220م، يعتبر من أشهر وأكبر اللاهوتيين الذين كتبوا ودافعوا عن المسيحية ويعتبر أول من طرح مصطلح التثليث في كتاباته، له العديد من الأعمال والمؤلفات، أشهرها الدفاع "Apologeticum" الذي كتبه في أواخر سنة 197م، و إلى زوجتي "Ad uxorem" حوالي 199م وزينة المرأة "De cultu feminarum"، للإستزادة عنه أنظر:

Jérôme Alexandre, *Tertullien théologien*, Parole et silence, Collection Collège des Bernardins, Saint-Maur, 2012, 6-10

1- Tertullien, Œuvres de Tertullien, traduites en français par M.De Genoude, 2^{ème} édition, Paris, éd., Louis Vivès, 1852, De Cult.fem, I,1 ; Apologétique, III ; De Pallio, 4-1

2- بنت النبي مقدم، الأسرة في بلاد المغرب القديم خلال العهد الروماني الإمبراطوري الأول (27 ق.م- 284م)، أطروحة دكتوراه تحت إشراف أ.د. بلقاسم رحمان، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2013، ص 120.

**مدينة سوق اهراس عرفت قديما بتاغاست (Thagaste) وهي تقع شرق الجزائر وجنوب شرق عنابة، تبعد عن هذه الأخيرة بمائة كيلومتر.

3- Poujoulat.M, Histoire de Saint augustin sa vie, ses œuvres, son siecle, influence de son genie, ed.,J Labitte, paris, 1848,p2

4- عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازيغية القديمة، ط 2، طبعة اديجال، 2010، ص189.

5- Petit Abbée Paul, 1836, la vie de saint Augustin, librairie de Perisse, Paris, 1836, p4

6- Henri-Irénée Marrou, Saint Augustin et l'augustinisme, Paris, Le Seuil, 1955, p 11

***مداورش ""

7- Ibid

8- Catherine Salles, « Vie culturelle et littéraire dans l'Afrique romaine » in l'Afrique romaine de 69 à 439, - Questions d'histoire : Histoire ancienne, Romanisation et christianisation, ouvrage collectif cordonné par Bernadette Cabouret, éd., Temps, 2005, p 272

9- Poujoulat.M, Abregé de l'histoire de saint Augustin eveque d'Hippone, J Lettre librairie, Paris, 1845, p3

10- عبد السلام بن ميس، المرجع السابق، ص190

****القديس أمبروزيوس "Aurelius Ambrosius" أحد رموز الكنيسة المؤثرة في المسيحيين بميلانو، ولد سنة 340م في ترافس (Trèves) ببلاد الغال، وبعد وفاة والده رحل مع عائلته إلى روما حيث شغل منصب محامي قبل اعتناقه المسيحية وتوفي

سنة 397م، ويعتبر واحداً ممن أثروا كثيراً بالقدّيس أوغسطينوس بفكره وسعة اطلاعه على من سبقه من المفكرين والفلاسفة، Salles.C, Saint Augustin, un destin africain, éd., Desclée de Brouwer, Paris, 2009, pp 179-183.

11- شارل اندري جوليان، 1985، تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي والبشيرين سلامة، ط5، الدار التونسية للنشر 1985.

Salles.C, Vie culturelle et littéraire., p 272 :304

****بوسيديوس القالي: ولد سنة 370م، من مدينة قالمة، تتلمذ علي يد القدّيس أوغسطينوس وأصبح صديقه بكنيسة عنابة، وانتخب سنة 397م أسقفاً لكنيسة قالمة، كما شارك في مجمع قرطاج سنة 411م مع القدّيس أوغسطينوس وصديقه الأب أليبيوس للتصدي ومواجهة الدوناتيّين، وتوفي بالمنفى بمدينة ميروندول الإيطالية حوالي 437م بعد نفيه من طرف الملك جنسريك الوندالي، من أهم أعماله حياة القدّيس أوغسطينوس "Sancti Augustini vita".

Salles.C, Augustin., p 374---- 12- Ibid, p373- 374

13- Serge Lancel , Saint Augustin. La Numidie et la société de son temps, Actes du colloque SEMPAM à Bordeaux, éd., Ausonius 10-11 Octobre, 2003, p764

14- René Pichon, histoire de littérature latine, 2eme ed revue, Librairie Hachette, Paris 1898, p 868.

15- محمد الحبيب بشاري، الحياة الأدبية الرومانية ومساهمة الأفارقة في إنعاشها، مجلة عصور، جامعة وهران، العدد 10، 2013، ص44.

16- Catherine Salles, op.cit, p 272.

17- زكريا إبراهيم، اعترافات القدّيس أوغسطين، ط1، هيئة الكتاب، مصر 1994، ص17.

18- بنت النبي لمقدم، الحياة الفكرية والأدبية في الجزائر القديمة، مجلة الدراسات الانسانية والاجتماعية، جامعة وهران 2، العدد 8، 2018، ص344---- 19- عبد السلام بن ميس، المرجع السابق، ص207

20- أحمد حسين سليمان، 1986، مدينة الله للقدّيس أوغسطين (354-430م)، مجلة الحوليات، العدد الأول، الجزائر 1965، ص254---- 21- محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص44---- 22- عبد السلام بن ميس، المرجع السابق، ص208؛ علي زيفور، 1983، أوغسطين وسبع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسطية، ط1، دار إقرأ، بيروت 1983، ص108.

23- Nissard.M, Tertullien et saint Augustin : œuvres choisies, Typographie de firmin, Paris, 1956, p135/Catherine Salles, op.cit, p35-36.

24- Saint Augustin, Confessions in Œuvres complètes, Volume 2, Traduites en français et annotées par Péronne, Ecal, Vincent, Charpentier, H.Barreau, éd., L.Vivès, 1870, VIII, 11,30

25- Ibid, V,8, 15---- 26- Ibid, V,9, 17---- 27- Ibid, VI,1,1---- 28- Ibid, VI,2, 2---- 29- Ibid, VIII,11,28---- 30- Ibid, IX,6,14---- 31- Ibid, IX,8, 17---- 32- Ibid, VIII,9,19---- 33- Ibid, IX,9,22

34- Ibid, IX,9, 19

35- إبراهيم الغربي، اعترافات القدّيس أوغسطينوس، دار التنوير، تونس، 2012، ص282-283

36- St.Augustin, Confessions, IX,9, 19---- 37- Ibid, IX,3,5---- 38- Ibid, IX,3,6

39- Ibid, III,1, 1---- 40- Ibid, II,3,8---- 41- Serge Lancel, Saint Augustin. Paris, Fayard, 1999, p50

42- St.Augustin, Confessions, IV,2, 2---- 43- Serge Lancel, « Augustin », E.B, n° 7, Aix-en-Provence, Edisud, pp. 1055-1065 1989, p51---- 44- St.Augustin, Confessions, VI,15, 25---- 45- Ibid, VI,15, 25.

46- Ibid, IV,2, 2---- 47- Ibid, VI,6,9---- 48- Ibid, VI,13,23---- 49- Ibid---- 50- Ibid, II, 3,8---- 51- Ibid, IX,9,29---- 52- Ibid, VIII,8,17

53- إبراهيم الغربي، المرجع السابق، ص282.

54- St.Augustin, Confessions, VIII,10,26---- 55- Ibid, V,9,17---- 56- Ibid, I,6,7---- 57- Ibid